

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 250 - 256
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الصحراء والبحث عن الذات عند إيزابيل إيبرهارت

بشير خليفي
قسم العلوم الإنسانية جامعة معسكر

إيزابيل إيبرهارت **Isabelle Eberhardt** كاتبة ورحالة سويسرية من أصول روسية، ولدت بجنيف في **17** فبراير **1877** وتوفيت نتيجة فيضان وادي البريج في مدينة العين الصفراء الجزائرية في **21** أكتوبر **1904**.

وعلى الرغم من قصر عمرها إلا أنه تركت مؤلفات وسيرة حياتية متفردة جعلتها واحدة من الأديبات العالميات اللائي أسسن أدب الرحلات تحديدا موضوع الرحلات داخل الصحراء.

والواقع أن موضوع الصحراء علامة فارقة في أنطولوجيا إيزابيل إيبرهارت، وهو الأمر الحاصل في تمثلها للصحراء كفضاء للتواجد وميتافيزيقا للخلاص.

لقد أحبت إيزابيل الصحراء وتفننت في وصفها بما تمثله كحالة أولى للوجود في شكله الحقيقي الذي يعلن عن نفسه بعفويته وجماله.

كانت الصحراء عند إيزابيل شكلا من أشكال التطهير، بالقدر الذي سعت من خلاله إلى صفاء الروح بالوضوح الذي تعلن عنه الصحراء، كما أنها في الوقت نفسه مكان للتجدد وكتم الأسرار؛ التجدد الذي يتوضح بعد هدوء العواصف المحملة بالأتربة ومن خلال الاتساع الذي يفرض على المتجول أن يحوز على ذاكرة قوية للمكان.

الإقامة في الصحراء بالنسبة للقادمة من جنيف بطرقها، قصورها وخصائبها يحيل إلى رغبة تتشابك بين هروب وأوبة ، هروب من ماض لا يعلن هوية واضحة إلى حالة صفاء نفسي تشترط سند المكان ووضوحه في بعديه الطبيعي والاجتماعي.

لقد كانت الصحراء في نظر إيزابيل موئلا مناسبا للعفوية والبساطة التي لا تتيحها المدن الأوروبية بتعقيداتها، وهي البساطة المنسجمة مع الشكل الحضاري للصحراء، ففي زمن إيزابيل شكلت الخيمة المسكن الأكثر اتساقا مع طبيعة الصحراء بالنظر إلى سهولة تركيبها وتفكيكها ونقلها كذا ملاءمتها لأحوال الجو أثناء الحرارة والبرودة، زيادة على إمكانية صنعها التي تتساوق

مع توفر المواد الأولية التي عادة ما تشكل من صوف الحيوانات وجلودها.

فالبيت الصحراوي بهذا الشكل هو نتاج طبيعي للبيئة ذات المناخ الصعب الذي غالبا ما ينوس بين الحر والقر، الأمر الذي يوجد إحساسا بالانتماء الذي تبرره الظروف القاسية، فيعمد الأفراد إلى التكاثف والتآزر بغرض تسهيل فعل التكيف.

إيزابيل إبيرهارت أو الصحراء كميلاد جديد

إن اللجوء إلى الصحراء في تصور إيزابيل هو بحث عن الشساعة التي ضيقتها مرارة الإحساس بفقدان الهوية، وهو مطلب نفسي يحضر للوهلة الأولى أثناء المعرفة بالتشكيل الأسري محل الانتماء.

لقد حملت إيزابيل الاسم العائلي لأمها الأمر الذي أوجد عندها رغبة في معرفة الحقيقة، الحقيقة الأولى التي يؤدي غيابها –كما أثبتت الدراسات النفسية – إلى تعجيل حالة الاكتئاب، فوجود الأب في حياة البنت ضروري لتفادي المشاكل النفسية والسلوكية إذ غالبا ما توفر شخصية الأب للبنت النموذج الرجالي الأول على مستوى الوجود والمعنى .

وعلى الرغم من المواساة التي قدمها ألكسندر تروفيموفسكي **Alexandre Trophimowsky** باعتباره مربي العائلة الأول خصوصا وأنها ولدت بعد طلاق أمها من أبيها بأربع سنوات الأمر الذي يضع نسبها محل تساؤل مما دفع إيزابيل إلى الانطلاق في سفر لا يعرف التوقف.

لقد شكلت القراءة نقطة البداية الأولى في عملية البحث عن الذات، حصلت هذه الرغبة بتشجيع من تروفيموفسكي الذي ساندها في قراءتها للكتب وتعلمها للغات .

وأثناء ممارستها للقراءة صادفت إيزابيل إعلان ضابط فرنسي شاب يقضي فترة الخدمة العسكرية في الجزائر يعرض رغبته للمراسلة فسارعت بمخاطبته الأمر الذي أشر لبداية علاقة عاطفية كانت نتيجتها بداية التعلق بالشرق.

وقد تأجج هذا الوعي مع أخيها أوغسطين دي موردر **Augustin de Moerder** الذي انخرط في اللفيف الأجنبي في مدينة سيدي بلعباس، حيث لم يخف أوغسطين أثناء مراسلاته إيزابيل إعجابه الشديد بالجزائر مشيرا في ذلك إلى تفردها بصحراء تتسم بالشساعة والبهاء الأمر الذي دفع إيزابيل إلى القول بأن روحها سكنت الشرق [(1)].

والواقع أن إيزابيل في بحثها عن الهوية المفقودة التي بدأت بهوية مضطربة كطفلة غير شرعية، ليتراكم الفقدان؛ فقدان الأب الحقيقي، مدينة المولد، الأصول الروسية على مستوى اللغة والذكريات.

لقد جعلت إيزابيل من حياتها تأليفا ثانيا، عبر قصة تتجاوز في فرحها وحزنها مختلف القصص التي كتبتها عن طريق التماهي مع الترحال كهوية مفضلة في إطار نسيج من الخطابات المتواترة.

لقد ارتبطت حياة إيزابيل في كل مرة ببحث دؤوب عن هوية ضائعة عن هوية ضائعة ارتسمت صورها عبر سفر فعلي أسست له عبر أسفار افتراضية عن طريق القراءة وتبادل الرسائل، فأصبح الطريق رمزا لحياة ثانية باتجاه المجهول الذي يقدم نفسه كخلاص لمعاناة الميلاد، وكملجأ لحالة خواء لم يفلح ألكسندر تروفيموفسكي في سد كل فجواتها.

وبفقدان إيزابيل لأمها نتالي إبيرهارت **Nathalie Eberhardt** قررت إيزابيل البحث عن الهجعة الآمنة والصمت العميق (...) دون عائلة أو كاتم أسرار .. لقد قررت – كما قالت – أن تواصل طريقها عبر الحياة إلى الوقت الذي تدق فيه ساعة النوم الأبدي[2].

الصحراء وسؤال الهوية

شكلت الصحراء عند إيزابيل صفحة بيضاء تعكس رغبتها في الطمأنينة ، فقد تمثلتها كمرآة جديدة تعكس فيها ذاتها وهو الأمر الذي يتضح على مستوى السيرة الذاتية كحالة وجود حقيقي أو من خلال التأليف الظاهر في الاحتفاء بالصحراء كفضاء جديد.

إن تعامل إيزابيل مع الصحراء يمكن أن يشكل علامة مضافة لدراستها أنتربولوجيا الأمر الذي يساهم في المعرفة بالتغيرات الحاصلة.

لقد تماهت إيزابيل مع سكان الصحراء في الترحال الذي شكل أسلوبا مفصليا من أساليب سكان الصحراء للبقاء على قيد الحياة، فقد عرفت أن الحياة في الصحراء تتوقف في البحث الدائم عن الماء، كما أدركت صعوبتها وعرفت أسرارها في أنها – أي الصحراء – ستنتصر دوما على أولئك الذين يتحدونها حينما لا يحتاطون ولا يستعدون للمجهول.

لقد أدركت إيزابيل أن العيش المستمر في الصحراء يتطلب شخصية قوية جاهزة باستمرار لمواجهة الصعاب، فتمثلت شخصية ساكنها عبر هوية جديدة في مختلف التفاصيل، ليكون البديل لإيزابيل إبيرهارت المرأة المسيحية السويسرية ذات الأصول الروسية الرجل المسلم الفارس محمود سعدي ذي الأصول الصحراوية[3].

لقد تقاطعت إيزابيل مع الصحراء في الحدية الثنائية للمعنى الذي تحيله، فالصحراء مكان فضفاض يعطي المتعة للنظر والراحة لنفس وهو الأمر الذي تاقت إليه إيزابيل بالنظر إلى معاناتها، وهي أيضا مكان شديد الاتساع، قليل الأمطار والنبات يحوز القسوة ويتطلبها للتأقلم وهو ما يتقاطع مع الحالة النفسية التي ألمت إيزابيل حينما اتسعت كآبتها واحباطاتها المتتالية .

الصحراء في تصور إيزابيل

سفر إيزابيل باتجاه الصحراء شكل تفصيلا أنتربولوجيا يشهد على طبيعة البشر والمكان في ذاك الزمن، خصوصا وأنها عمدت إلى تدوين يومياتها عبر كتابات تصنف في أدب الرحلات.

وعلى مستوى الوصف فهي تقع فيما يمكن أن يضاد طبيعة سويسرا بلد المولد والمنشأ، لتتشكل الصفحة الجديدة المغايرة وتتجسد معها الجدة التي ترنو نحو اكتساب هوية جديدة، وهو الأمر الذي اتجهت إيزابيل نحو إدراكه هذا ما تبينه أوصافها التي ترفل بمسميات جديدة تعبر عن البيئة الصحراوية بداية من الطريق الذي أصبح في نظر إيزابيل رمزا لحياة مبتكرة تتأسس على الحرية والأفاق المتجددة[4].

لقد تشكلت الصحراء في نظر إيزابيل كمحيط كبير مليء بالأسرار، ليتجسد حلمها كما عبرت عن ذلك في "حياة هانئة داخل بيت صحراوي تحت ظلال نخيل، إضافة إلى أغنام لينتشي قلبي وكذا حصان وكتب"[5].

والواقع أن إيزابيل قد تمكنت من تجسيد هذا الحلم رغم عمرها القصير من خلال معادلة في وجود ثنائي يجمع بين المغامرة في الصحراء بمتاعبها ومشاقها والاتجاه نحو الهدوء والطمأنينة لغرض التأمل والتفكير .

وهو الأمر الذي تجسد واقعيا مع اللقاء الأول بالصحراء، ففي الأيام الأولى من شهر أوت سنة 1899 بدأت إيزابيل مغامرتها في الصحراء الجزائرية بإقامتها مدة ثلاثة أيام في مدينة وادي سوف[6].

لقد اتجهت إيزابيل عبر تعاملاتها مع ساكنة الصحراء كممثلين للمجتمع الجزائري حينذاك إلى محاولة تفحص النظرة التعميمية التي كان يصف بها المستعمرون الأهالي، وذلك من خلال النظر في طبيعة التصورات والقصص المشكلة لهذا الطرح التعميمي .و هذا ما يبرز سواء في مراسلاتها الصحفية أو في قصصها وكذا يومياتها التي دأبت من خلالها على توثيق ما يقع من الحوادث.

ففي شهر أكتوبر من سنة 1900 وجهت إيزابيل رسالة إلى الجنرال ديشيزال Dechizelle الحاكم العسكري لباتنة تتحدث فيها عن الوضعية الأسيفة التي يعيشها الأهالي في ضوء حالة التمييز التي يتعرضون لها من معاملة لا إنسانية للأسرى خصوصا وإغتصاب للأراضي، الأمر الذي ألب عليها المعمرين الذين أثاروا حولها الشكوك حينما أدركوا ولعها بالعيش مع الأهالي متنكرة في زي رجل عربي الأمر الذي دفع ديشيزال إلى اقتراح طردها من الجزائر[7].

و على الرغم م هذه المضايقات الشديدة التي تأججت بمحاولة قتلها على يد عبد الله بن

محمد أحد مريدي الطريقة التيجانية بقرية البهيمة قرب الواد في جانفي 1901 والتي توجت بالطرد الفعلي[8].

إلا أن إيزابيل سرعان ما أكدت ولعها بالصحراء وحبها العميق لساكنتها بعد غياب قصري استمر ستة أشهر، لتواصل حياة جديدة بتوطيد علاقتها مع الجزائري سليمان هني الذي أحبته وتزوجت منه في أكتوبر 1901، وكذا بتعميق روحانيتها بعد انتمائها للطريقة القادرية ؛ وهي الطريقة التي تعود بنسبها إلى عبد القادر الجيلاني والتي تتأسس على تخلية النفس من شهواتها وملذاتها بمقابل تحليتها بالصبر والمحبة في أوسع وأعمق معانيها[9].

في بلاد الرمال

يحتفي العالم القصصي لإيزابيل بالصحراء في تنويعاتها وتشكيلاتها، بالنظر إلى الأجواء المحيطة بها سواء من حيث الجغرافيا الخاصة بها، طبيعة المتعامل معها، أو في تلك الحدية التي تجسدها سيطرة الشتاء والصيف على بقية الفصول .

لا تتجه إيزابيل نحو ترسيخ فكرة الصحراء كخواء بتكريس فكرة سلبية ترى فيها ملاذا فاقدا للمتعة[10] إذ تأبى الصحراء إلا أن تكون واضحة من خلال المحافظة على طبيعتها كمتحف أو قارة ممتدة تؤشر لما قبل التاريخ وتربطه بالحاضر عن طريق حبات الرمل في تشكيلها للكثبان والتي تجعل من الصحراء مزيجا بين الطبيعي والمجرد[11].

وهو الأمر الذي أدركته إيزابيل ايبرهارد في علاقتها مع الصحراء التي وجدت فيها تعبيرا عن هويتها الضائعة.

إن ارتباط إيزابيل بالصحراء أوجدتها حالة من الصداقة تؤسس لتقاطع في اشتهاء حالة الوضوح المولد للتأمل والإلهام.

كما أبرز هذا الاندماج إضافة إلى الدافع الطبيعي الواضح في الخصوصية الجغرافية والمناخية للصحراء بعدا آخر ممثلا في الشق الإنساني لساكني الصحراء في سجاياهم التي يجمعون من خلالها بين العفوية والوجاهة وشدة التحمل وهو الأمر الذي شكلته إيزابيل في عالمها المحكي من خلال قصة في الرمال التي تبرز فيها طبية الحياة الصحراوية.

القصة تحيل إلى وصف اللحظات الممتعة القاسية التي قضتها إيزابيل أثناء ترحالها في الصحراء. قضاء وقت ممتع في اصطياد الأرانب الصحراوية، النوم داخل الخيمة، استعمال البرنوس كغطاء، سقوط الخيمة أثناء هبوب العاصفة ثم العمل على إصلاحها ليلا، حمحمة وصهيل حصانها "سوف" وركضه الجميل حين تمتطي صهوته[12]، كلها لحظات ووقائع متفردة شكلت عوامل الجذب التي جعلت من إيزابيل عاشقة للصحراء.

ولا تكتفي إيزابيل في قصتها بسرد هذه النوازل الممتعة وإنما تدخل في إطار الحكي في تفصيل وقائع مرتبطة بذاتها وكذا بالصحراء وساكنتها.

فبعد أن تاهت في صحراء الواد أدركت أن الحل الوحيد هو الاتجاه إلى أماكن الشرب للخلاص بالنظر إلى أهمية الماء الكبيرة وصعوبة الحصول عليه في هذه المنطقة.

استغلت إيزابيل حاجتها للماء لتثري زوادتها المعرفية نتيجة لقائها بثلاثة أشخاص بالقرب من بئر في صحراء الواد ليتحدد الأمر بوصفه دراسة أنتربولوجية واثنوغرافية تحيل إلى المعرفة بالأصول والأنساب(13).

الخاتمة

لقد وجدت إيزابيل في الصحراء هويتها الضائعة وملاذها الآمن نتيجة التمزق النفسي الشديد الذي عانته في صغرها، خصوصا من جراء مشكلة نسبها في إشارة إلى أنها قد ولدت بعد طلاق أمها من أبيها بعد أربعة سنوات.

لقد أحبت إيزابيل الوضوح واتجهت إلى السعادة بعد طول يأس، الأمر الذي وفرته لها الصحراء رغم قصاوتها، لما تتسم به كبيئة خاصة مليئة بالأسرار تشترط الاحتياط بغرض التأقلم والاستمرار.

كما أن إيزابيل لم تبرز أنوثتها بل ضلت في ترحالها على صهوة حصانها "سوف" تعبر عن هوية ذكورية عبر ارتداء زي رجالي واسم مستعار في إشارة إلى محمود سعدي، وهو حالة البحث عن الهوية داخل صحراء تعرف بأنها عالم أسرار تمد الإنسان بمزية الشساعة ومد البصر إلى آخر نقطة، الأمر الذي أمد إيزابيل بالحلم وفضول الاكتشاف، وهو ما عبرت عنه بقولها: "كنت أحلم وأنا أحدق مليا في الطرقات أن أكون رحالة وسأبقى رحالة طيلة حياتي، عاشقة للآفاق المتغيرة والأماكن القصية التي لم تكتشف بعد"(14)....

الهوامش:

(1) - D'eaubonne Françoise , La Couronne de Sable ; Vie d' Isabelle Eberhardt , Edition Flammarion , Paris , 1968 , P 42.

(2) – Isabelle Eberhardt , Écrits intimes , Petite Bibliothèque Payot , Paris , 2003 , P V-VI .

(3) – Mackworth Cecily , The Destiny of Isabelle Eberhardt , Edition Quartet Books Limited , London , 1977 , P 216 .

(4) – Edmonde Charles-Roux , Isabelle du désert , Edition Grasset et Fasquelle , Paris , 2003 , P 521.

(5) –Noel Jean , Isabelle Eberhardt ; L'aventureuse du Sahara , Edition Baconnier , Alger , 1961 , P 96 .

(6)- Brahimi Denise , L'oued et la Zaouïa ; Lectures d' Isabelle du désert , Offices des Publications Universitaires , Alger , 1983 , P 140.

(7) - Edmonde Charles-Roux , Isabelle du désert , P 736 .

(8)- Ibid , P 795 .

(9) - Brahimi Denise , L'oued et la Zaouïa ; Lectures d' Isabelle du désert , Offices des Publications Universitaires , Alger , 1983 , P126 .

(10) - Brisson Jean , *Mythes et réalités d'un désert convoité ; Le Sahara*, L'Harmattan , Paris , 2003 , P 10 .

(11) - Swift Jermy , The Sahara, Time Life International , Nederland, 1978 , P 170 .

(12) Isabelle Eberhardt , Yasmina , et autre écrits ; Nouvelles, Edition Lianna Levi piccalo , 1986, P 293 .

(13) - Ibid , P 247 .

(14) - Isabelle Eberhardt , The Passionate Nomad ; the Diary of Isabelle Eberhardt , trans Nina de Voogd, Virago, London , 1987, P 10 .